ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
مجلد: 10 عدد 2 ديسمبر 2019 ص.ص 50-80

دور علماء الأزهر في التقريب بين المذاهب الإسلامية وإرساء ثقافة التسامح والعيش المشترك

عيسى زياني[1]، بيران بن شاعة[2]
[1] جامعة عمار ثليجي، الأغواط، ziania issa20@yahoo.fr
[2] جامعة عمار ثليجي، الأغواط، b.birane@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 31/ 07/ 2019؛ تاريخ القبول: 18/ 09/ 2019

The role of Al-Azhar scholars in bringing Islamic doctrines closer together and establishing a culture of tolerance and coexistence.

Abstract:

The employment of religion by certain doctrines and Islamic groups is a way that is trying to control the minds of Muslims, taking advantage of their sympathy towards the Islamic religion, because the rejection of the other and the absence of the culture of living together, and tolerance within Islamic culture, is what made Azhar scientist make an end through Rapprochement between Islamic sects, as well as giving breat that rejects all intolerance and all blinking regardless of creeds and numerous cultures, and we still hope to establish coexistence and tolerance values among

المؤلف المراسل: عيسى زياني
ziania issa20@yahoo.fr

contemporary Islamic societies subject to the role of religious institutions and scientists such as: Al-Azhar in Egypt Zaytouna and with Tunisia and Iran's scientific estate, come on top of those scholars of Al-Azhar Al-Sharif.

Keywords: Al-Azhar; Convergence; Islamic doctrines; Tolérance; Coexistence.

الملخص:

لطالما استغلّت بعض المذاهب والفِرق الإسلامية الدّين للسيطرة على عقول العامة من المسلمين، مستغلّين بذلك مرونة هذه العقول مع الدّين لهذه الممارسة السلبية من بوابة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وكذلك اعطاء نفس جديد يرفض كل تعصّب وكل تطرّف مهما اختلفت المذاهب وتعدّدت الثقافات. ويبقى الأمل في ارساء قيم التسامح والعيش المشترك بين المجتمعات الإسلامية المعاصرة مرهونا بدور المؤسّسات الدينية وعلمائها مثل: الأزهر الشريف بمصر وجامع الزيتونة بتونس والحوزة العلمية بإيران، بيد أنّ المهمّة الكبرى يتحمّلها علماء الأزهر، لِما تحتله مؤسّسة الأزهر من مكانة بالغة الأهمية بين المسلمين.

الكلمات المفتاحية: الأزهر؛ التقريب؛ المذاهب الإسلامية؛ التسامح؛ العيش المشترك.

مقدمة:

يعتبر الأزهر الشريف من أبرز المؤسسات الدينية التي حملت على عاتقها مسؤولية الحفاظ على ثوابت الأمّة الإسلامية والدفاع عن هويتها الحضارية، إذ تجلّى هذا الدور من خلال اسهاماته لنشر الاسلام وتدريس العلوم النقلية والعقلية، وقد كان الأزهر من موقعه في مصر حاملا للواء الجهاد ضدّ الاستعمار، وما هبّته ضد الحملات – الفرنسية والبريطانية- التي هدفت إلى طمس الثقافة الإسلامية لدليل يبرز دوره المتميّز.

وقد شهد النصف الأول من القرن العشرين موجة عنف عصفت بوحدة المسلمين، حيث اتّسع الخلاف بل واشتدّ بين أكبر طائفتين: الشيعة والسنة، هذا الوضع تخلّلته بعض المشاريع وبعض المحاولات الاصلاحية، لعلّ البارز منها مشروع التقريب بين المذاهب الإسلامية، هذا المشروع الذي دعا إليه عقلاء من أهل الشيعة أمثال: كاشف الغطاء وتقي الدين القمي وعقلاء من أهل السنة أمثال: شلتوت وعبد المجيد سليم.

حيث كان لعلماء الأزهر دور في هذا المشروع، فقد أعلن شيخ الأزهر محمود شلتوت(1893،1963م) خلال أربعينيات القرن العشرين

عن فتواه التي تقضي بإدراج المذهب الجعفري الشيعي(ينظر الملحق رقم:01) كمذهب يتعبّد به المسلمون على غرار المذاهب السنية الأربعة، هذا ما أكّد على مساعي الرجل في تحقيق الوحدة الإسلامية، هذه اللحظة التاريخية جعلت المسلمين شيعة وسنة يقتنعون بفكرة التقريب، كخطوة ايجابية لتحقيق الوحدة الإسلامية.

يروم هذا البحث لتسليط الضوء على جهود بعض علماء الأزهر في التقريب بين المذاهب الإسلامية، ومدى فعاليتها في نشر ثقافة التسامح وسط المجتمعات الاسلامية، وذلك من خلال طرح بعض الإشكالات:

- ما طبيعة مشروع التقريب بين المذاهب الإسلامية؟

- ومن هم أبرز رواده من علماء الأزهر؟ وفيما تمثّلت جهودهم؟

- وما هي تجلّيات هذه الجهود المذكورة آنفا، في ارساء قيم التسامح وسط المجتمعات الاسلامية المعاصرة؟

مشروع التقريب بين المذاهب الإسلامية...الفكرة والمشروع:

لقد شهد العالم الإسلامي في منتصف القرن التاسع عشر ميلادي مشاريع نهضوية واصلاحية حاول أصحابها اخراج المجتمعات الإسلامية

من سباتها الحضاري الذي امتدّ لعقود من الزمن، ومن المشاريع التي برزت في هذه الفترة مشروع جمال الدين الأفغاني (1838،1887م) الذي تُعتبر فكرة الجامعة الإسلامية أهم مرتكزاته، حيث يعتقد أنها السبيل إلى تحقيق الوحدة الإسلامية (العوا محمد سليم، 2006: 301)، وقد كانت انجازات الرجل وتجاربه بارزة في تحقيق هذه الوحدة.

اعتبرت مجلّة العروة الوثقى التي أصدرها الأفغاني مع محمد عبده (1849،1905م) الحيّز الذي كشف فيه الأفغاني عن مشروع النهضوي، وقد عزّز الأفغاني مجلّته هذه بالكتب والمقالات التي أصدرها طيلة مشواره، وقد عبّر الأفغاني عن الوحدة الإسلامية بأنّها: " جُزءًا من الأصول الأساسية التي يدعوا إليها الإسلام، وهي أمر ضروري سياسيًا ودينيًا وحضاريًا" (الأفغاني جمال الدين، عبده محمد، 2002: 73).

لم يتوقف مشروع النهضة العربية والإسلامية بعد وفاة الأفغاني؛ بل تتابعت المشاريع مع ثلّة من المفكّرين من أمثال: محمد عبده ورشيد رضا(1865،1935م)، وشكيب أرسلان(1869،1946م)، وعبد الحميد بن باديس (1889، 1940م)، وآخرون لا يتّسع المجال لحصرهم، فعلى الرغم من اختلاف الأفكار والرؤى بين هؤلاء المفكرين، إلاّ أنّ غايتهم كانت واحدة وهي تحقيق الوحدة الإسلامية، والنهوض بالأمة العربية والإسلامية إلى مصاف الأمم المتقدّمة، وميزة هذه الجهود أنّها كانت على

المستوى الفردي فقط، ممّا جعلها تواجه بعض العقبات التي تسبّبت في تعثّرها في الكثير من المحطات.

وعلى تخوم النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي برز مفهوم آخر يصبّ في صالح الوحدة الإسلامية، هذا المفهوم تمثّل في التقريب بين المذاهب الإسلامية، حيث نظر رواده من خلاله إلى هذه الوحدة من منظار اصلاح العلاقات بين أرباب المذاهب الإسلامية خاصة بين الشيعة والسنة، على اعتبار أنّهما يمثّلان السّواد الأعظم من المسلمين، والبعض يعتقد أنّ التقريب محاولة جادة لتعزيز الروابط بين أتباع المذاهب، من خلال تفهّم الاختلافات الواردة بينها، ونزع آثارها السلبية، وليس إزالة أصل الاختلاف من البيّن (الخسروشاهي السيد، 2007: 12).

تمثّلت البدايات الأولى للتقريب بين المذاهب الإسلامية في مشاركة بعض علماء الشيعة مثل ' كاشف الغطاء' (1877،1954م) مع علماء من السنة، وذلك في مؤتمرات مختلفة (برانر راينر، 2015: 187)، ومحاورات أخرى جرت بين الأزهري 'مصطفى المراغي'(1881، 1945م) مع الشيعي 'عبدالكريم الزنجاني'(1887، 1968م)، هذه المحاورات وهذه الجهود كانت على المستوى الفردي فقط، ممّا جعلها تتعثّر في بعض الأحيان، الأمر الذي عجّل في إنشاء مؤسّسة دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة عام 1947م (برانر راينر، 2015: 231).

أكّدت الوقائع والحقائق التاريخية على أنّ المبادرة في التقريب بين المذاهب الإسلامية جاءت " من المسلمين الشيعة، واتّصلت بهم حركة ونشاطًا، خطابًا ورجالًا" (الميلاد زكي، 2015: 5)، والحجّة في ذلك تصريح 'محمود شلتوت' الذي اعتبر أنّ دعوة التقريب بدأت مع علماء الشيعة، وبالضبط مع 'تقي الدين القمي' (وُلِد 1908م) الذي اعتبره الكثيرون أول من نادى بهذه الدعوة، وهاجر من أجلها إلى هذا البلد، بلد الأزهر الشريف (العلايلي محمد ، 1997: 14)، طرحُنا لهذه الفكرة ليس تقزيما لعلماء السنة و لا تقصيرا منهم؛ إذ ساهموا بشكل كبير في تجسيد هذا المشروع، لكن يجب الاعتراف بفضل علماء الشيعة ومحاولاتهم الأولى في تأسيس مشروع التقريب بين المذاهب الإسلامية.

يحق لنا أن نجزم بأنّ البدايات الأولى للمشروع التقريبي إنّما هي ثمرة من ثمرات جهود 'جمال الدين الأفغاني'، ومن سار على نهجه من بعده، وأنّ المحاولات التي قدّمها المصلحون من مختلف المذاهب في هذه الحقبة، لم تذهب سُدى، لأنّها في اعتقادنا كانت لبِنة من لبنات مشروع التقريب بين المذاهب الاسلامية.

جهود علماء الأزهر في التقريب بين المذاهب...بين الوسطية والاعتدال: ستكون لنا في هذه الجزئية وقفة مع أبرز رواد المشروع

التقريبي من علماء الأزهر، محاولة منا الكشف عن أهم جهودهم في التقريب.

أولا: محمود شلتوت (1893،1963م): لقد كسب محمود شلتوت ثقة الكثير من المسلمين بفضل جهوده التي قدّمها لإنجاح مشروع التقريب بين المذاهب الإسلامية (القمي تقي الدين، د س: 192)، أما الأمر الذي جعله يكسب هذه الثقة فتواه التي قدّمها منتصف القرن العشرين الميلادي حيث جاء في مقدّمة نصها: " إنّ الإسلام لا يوجب على أحد اتّباع مذهب معيّن، بل نقول: إنّ لكل مسلم الحق في أن يقلّد بادئ ذي بدء أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا، والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة، ولمن قلّد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره – أيّ مذهب كان – ولا حرج عليه في شيء" (عمارة محمد، 2006: 16). هذا النص يعبّر عن سماحة 'محمود شلتوت' في تعامله المرن مع مختلف المذاهب، لأنّ هذه المذاهب في اعتقاده تنبع من سراج واحد، وذات مرجعية واحدة هي الكتاب والسنّة النبوية، وللمسلم الحرية المطلقة في اتّباع أي مذهب، على اعتبار أنّ الشريعة الإسلامية جاءت لتوسّع على المسلم ممارسته اليومية لا تضيّق عليه.

من المذاهب الإسلامية التي رخّص 'محمود شلتوت' التعبّد بها المذهب الشيعي الجعفري، هذا المذهب الذي ينتشر بشكل كبير في ايران

وبعض دول الخليج، حيث أكّد 'محمود شلتوت' على أنّ المذهب الجعفري " مذهب يجوز التعبّد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة، فينبغي لكل مسلم أن يعترف بذلك، وأن يتخلّص من كل خلفية تجعله يتعصّب لمذهب معيّن، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب محدّد، فكل من تتوفر فيه شروط الاجتهاد يمكن تقليده والعمل بما يقرّه في فقهه، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات" (عمارة محمد، 2006: 16).

ومن جهود محمود شلتوت التي ساهم بها في مشروع التقريب بين المذاهب، اجتهاده في تفسير القرآن الكريم بأسلوب بعيد عن أيّ تعصّب مذهبي، وعن أيّ خلفية كلامية(سلهب حسن، 2008: 103)، فالتفسيرات التي قدّمها شلتوت من خلال مجلّة رسالة الإسلام هدفت إلى وضع حد لتلك الخلافات المذهبية، أو على الأقل التخفيف من حدّتها، ودعوة التقريب على حد قول محمود شلتوت ماهي إلاّ دعوة إلى التوحيد والوحدة، وهي دعوة الإسلام والسلام (العلايلي محمد ، 1997: 14).

ثانيا: مصطفى المراغي (1881، 1945م): يعتبر المراغي من أبرز رواد التقريب، حيث اجتهد في تحقيق الوحدة الإسلامية، من خلال تركيزه على دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية، وهو ما عبّر عنه في قوله: " من الخير والحق أن نتدارك هذا – أي الفروق المذهبية – وأن

يعنى العلماء بدراسة القرآن الكريم والسنة المطهّرة دراسة عبرة وتقدير، لِما فيها من هداية ودعوة إلى الوحدة" (عمارة محمد، 2007: 77)، من هذا النص ندرك أنّ الفهم الخاطئ للنصوص الدينية كان سببا في تفرّق المسلمين، وأنّ الخطر يكمن في التأويلات المظلّلة لهذه النصوص، بمعنى آخر أنّ الفهم الصحيح للنصوص الدينية يجنّب الكثير من المآزق التي تقع فيها المذاهب الإسلامية.

من القضايا التي أجّجت الصراع بين الشيعة والسنة موضوع الإمامة (الخلافة)، فقد صيّرها البعض من قصارى الفهم أصلا من أصول الدين، فأحدثت في الأمة هذا التشتّت وهذا الانقسام، فدراسة 'مصطفى المراغي' للنصوص الدينية، يمكن اعتبارها دراسة من شأنها أن تقوي الرابطة بين العبد وربه، وتجعل المؤمن رحب الصدر هاشا باشا للحق، مستعدا لقبوله، عاطفا على اخوانه في الإنسانية، كارها للبغضاء والشحناء بين المسلمين (عمارة محمد، 2007: 77)، إذن فالتأويل الذي يخلوا من أي مصالح شخصية يذيب ويحد من الخلافات المذهبية، هذه الخلافات التي أفرزت الفُرقة والتعصّب، بيد أنّه ليس من الضروري أن تتشابه هذه التأويلات، أو أن يتسابق أصحابها لكسب ثقة عامّة الناس، لأنّ هذا النوع من التأويل يخلّ بقاعدة الاختلاف الذي يُعتقد أنّه رحمة للمسلمين.

لقد كانت جهود 'مصطفى المراغي' سبّاقة في توطيد العلاقة بين الشيعة والسنّة؛ فقد كشفت عنه محاوراته مع عبد الكريم الزنجاني (1887،1968م) العالم الشيعي، الذي سار معه على طريق واحد في حل القضايا العالقة بين مذهبي الشيعة والسنة (برانر راينر، 2015: 187).

من مواقف 'مصطفى المراغي' في مسألة التقريب، أنْ دعا إلى تدريس الفقه المقارن لأوّل مرة في جامع الأزهر منذ تولّيه مشيخة الأزهر عام 1928م، هذا التدريس لا يقتصر فقط على المذاهب السنية الأربعة، بل تتوسّع دائرته لتشمل مذهب الشيعة الجعفري (المراغي مصطفى، 1949: 348)، وبالفعل تقرّر مؤسّسة الأزهر دراسة فقه المذاهب الإسلامية سنّيها وشيعيها، دراسة تعتمد على الدليل والبرهان، وتخلوا من التعصب من فلان وفلان (العلايلي محمد ، 1997: 16).

فيما يخص قوانين الأحوال الشخصية فقد كان رأي 'مصطفى المراغي' فيه صريحا وواضحا حيث دعا الجميع بكل ثقة وفخر أن: " ضعوا من المواد ما يبدوا لكم أنه يوافق الزمان والمكان وأنا لا يعوزني بعد ذلك بأن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم" (سلهب حسن، 2008: 40)، هذه الصراحة والشجاعة في نفس الوقت، تعكس ثقة 'مصطفى المراغي' ومرونته الذهنية في التعامل مع مختلف الآراء المذهبية، وكأنّ المراغي يقول بأنّ هذه المذاهب التي شاعت بين

المسلمين، وعلى الرغم من اختلافها، يمكن أن نستنبط منها ما يخدم الأحوال الشخصية التي تتعلّق بالمسلمين.

ثالثا: عبد المتعال الصعيدي (1894،1966م): يتلخّص التقريب بين المذاهب الإسلامية عند 'عبد المتعال الصعيدي' في ثلاث مرتكزات:

- علي بن أبي طالب والتقريب بين المذاهب.
- الرابطة الوطنية والرابطة الإسلامية.
- دراسة علم التوحيد

إنّ أوّل خلاف وقع بين المسلمين تدور رحاه حول الخلافة، فمنذ أن انفرد أهل الشيعة برأيهم في أحقية 'علي بن أبي طالب' في الخلافة، من ذلك الوقت وهم يعتقدون أنّ عليّا -رضي الله عنه- هو الخليفة الشرعي للمسلمين بعد النبي - صلى الله عليه وسلم-، لقد تنبّه 'عبد المتعال الصعيدي' من خلال الوقائع التي دوّنها التاريخ الإسلامي في مسألة الخلافة إلى أنّ واضع الأساس الأول للتقريب هو الإمام 'علي' نفسه (العلايلي محمد، 1997: 87)، ويتّضح ذلك من خلال مبايعة الإمام علي للخلفاء الذين سبقوه، قاطعا كل شكّ فكرة اغتصاب الخلافة منه كما زعم الكثير. لقد كان للإمام 'علي بن طالب' موقف آخر

في قضية التحكيم(ينظر التعليق رقم2) التي أبانت عن تسامحه وسماحته التي عُرف بها بين المسلمين.

إذن فاعتقاد 'عبد المتعال الصعيدي' بخصوص أنّ الإمام 'علي بن أبي طالب' واضع أساس التقريب بين المذاهب، فيه دلالة على أنّ الخلافة ليست أصلا من أصول الدين، على الأقل من الجانب السنّي، وبذلك فهذه المسألة التي كانت سببا في تفرّق المسلمين قد تكون هي نفسها جامعة لهم، شريطة أن يتنازل الشيعة الرافضين منهم لهذه الفكرة، على أنّ الخلافة وإن كانت للإمام 'علي بن أبي طالب' فهي ليست إنكارا لأحقية الخلفاء الذين سبقوه.

محاولة 'عبد المتعال الصعيدي' في التقريب بين الشيعة والسنة، تأسّست من خلال ابراز محبّة غير الشيعة من المسلمين للإمام علي بن أبي طالب، خصوصا أهل السنّة منهم، هذه المحبّة على قدر متساو مع محبّة الخلفاء الراشدين الأوّلين، بل لا يكتمل الشّرف إلا بمحبّة آل بيت رسول الله، وفي هذا دعوة إلى كل الأطراف المتشاجرة شيعة كانت أو سنّة أو حتى مذاهب أخرى، بأن يتحروا الافتراءات والأكاذيب التي تزيد الاتّهام بهذا المذهب أو ذاك.

أمّا فيما يخص المرتكز الثاني الذي يلخّص التقريب بين المذاهب عند 'عبد المتعال الصعيدي' فيتمثّل في الرابطة الوطنية والرابطة الإسلامية (العلايلي محمد، 1997: 129)، فإذا كانت الرابطة الوطنية تجمع المسلم وغير المسلم وفق نفس الأهداف المشتركة التي تجعل من ذلك المجتمع مجتمعا متماسكًا، فالأجدر والأولى لمجتمع ينضوي تحت الرابطة الإسلامية أن يتحلّى أفراده بسمات الوحدة والإخاء، لأنّ المعاملة بينهم لا تبلغ درجة الخلاف، أكثر من ذلك، فالإسلام لم يدعُ فقط إلى الرابطة الإسلامية فحسب، بل قد تجاوز ذلك بالمؤاخاة والتعايش بين أفراد المجتمع الواحد على اختلاف اعتقاداتهم، أي أنّ عامل الدين لا يؤثّر على الرابطة الوطنية، حيث أنّ الإسلام لا يزن الأمور بميزان الدين (العلايلي محمد، 1997: 132)، وأنّه لا إكراه في الدّين، وممّا لا شك فيه أنّ الخلاف الديني ليس في شيء من أمور الخلاف السياسي (الصعيدي عبد المتعال، د س: 62).

إذن فمقصد 'عبد المتعال الصعيدي' من خلال عنايته بالرابطتين الوطنية والإسلامية، أن لا يتعصّب أتباع المذاهب الإسلامية إلى مذاهبهم، وأن يلتفوا تحت راية الرابطة الوطنية لأنّ الإسلام أزال التفرقة والظلم والاختلاف في الدين أو القومية، ودعا إلى العدل والمساواة بين أفراد المجتمع الواحد.

أمّا بخصوص المرتكز الثالث الذي يلخّص التقريب بين المذاهب عند 'عبد المتعال الصعيدي' فنقطته المحورية تتمثّل في علم التوحيد، حيث دعا إلى إعادة تدوينه، لتدرّس من خلاله الفرق الإسلامية دراسة جديدة تقرّب بين هذه الفرق وهذه المذاهب (العلايلي محمد، 1997: 136)، واعتقد كذلك أنّ هذا العلم قد زرع الخلاف بين المسلمين (الصعيدي عبد المتعال، د س: 60)، حيث كانت شرارته الأولى مسألة مرتكب الكبيرة التي أثارها الخوارج في ذلك الحين، ومن بعدها مسألة الكلام وإشكالية خلق القرآن. إنّ دراسة هذا العلم لا تعطّل مبدأ الاجتهاد الذي يقوم على تأويل الآيات المتشابهة منها والمحكمة، والتأويل ما هو إلّا اجتهاد في النص (العلايلي محمد، 1997: 143).

رابعا: محمد الغزالي (1917،1996م): لقد كانت اهتمامات ' محمد الغزالي' بقضايا المجتمعات الإسلامية جليّة وصريحة، ذلك من خلال اعتنائه بالوحدة الإسلامية، حيث كانت له اسهامات في التقريب بين المذاهب الإسلامية، ويُعتبر 'محمد الغزالي' من المؤيّدين لفتوى 'محمود شلتوت'، فقد صدر له مقالا بعنوان: على أوائل الطريق؛ هاجم فيه منتقدي 'محمود شلتوت' (الغزالي محمد، 1959: 415)، كما أصدر 'محمد الغزالي' كتاب بعنوان: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين؛ وضع

فيه بعض الحلول للتوفيق بين الشيعة والسنّة، وقد حدّدها في النقاط التالية (الغزالي محمد، 1981: 109):

- أن يتفق الفريقان في مؤتمر جامع على أنّ القرآن الكريم هو
- كتاب الإسلام المصون والمصدر الأول للتشريع.
- السنّة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع.
- التخلّي عن الخلافات التي حدثت في الماضي وتجنّب ادراجها في العصر الحاضر.
- أن يلبس الجميع ثياب المرونة والتسامح في شتّى الفروع الفقهية، ووجهات النظر المذهبية الأخرى.

هذه الحلول التي وضعها 'محمد الغزالي' لفكّ الخلاف بين الشيعة والسنة، تؤكّد على مساعي هذا الرجل في نشر ثقافة التسامح بين المسلمين، خاصة بين أرباب المذاهب الإسلامية، دون تعصّب وتحيّز لمذهب عن مذهب آخر.

لا شكّ أنّ التعصّب قد فرض منطقه بين المذاهب الإسلامية، لذلك لا نندهش من تحمّس 'محمد الغزالي' في رفض هذا التعصّب،

ويتّضح ذلك من خلال قوله: " والشيء الذي نرفضه ويرفضه جمهور العقلاء أن يَحْسب أحد الناس أنّ رأيه دين، وأنّ ما عداه ليس بدين، وأن يجمُد على ما عنده جمودًا قد يضرّ بالإسلام كلّه ويصدَع وحدته " (الغزالي محمد، 1981: 73)، فالآفات التي تؤدي إلى هذا النوع من التعصّب في اعتقاد 'محمد الغزالي' هي على نوعين: (الغزالي محمد، 1981: 74، 75): الأولى؛ تتمثّل في العجز العلمي وقلّة المعرفة، الثانية؛ تتمثّل في سوء النية، يضاف إلى ذلك بعض الأمراض النفسية التي لها سبب مباشر في اعوجاج السلوك الإنساني.

التعصّب الذي حذّر منه 'محمد الغزالي' هو ما نجد صوره في واقع الأمّة اليوم، حيث العجز العلمي وقلّة المعارف هو الشائع بين من يُسمّوا بأشباه الفقهاء، هذا بطبيعة الحال يجعل اطلاق الحكم على بعض المسائل الفقهية من قِبل هؤلاء يعتريه لُبس وضبابية في توضيح المفاهيم، ولهذا يرى 'محمد الغزالي' أنّ: " ما وقع من اختلاف فقهي أو نظري فلا يعدو أن يكون وجهات نظر لها مصادرها العلمية، ونيّة أصحابها إلى الله، وهم أصابوا أم أخطأوا مثابون مأجورون" (الغزالي محمد، د س: 98).

لطالما اعتزّ 'محمد الغزالي' بعضويته في جماعة التقريب، ذلك ما جرى على لسانه: " نعم أنا كنت من المعنيين بالتقريب بين المذاهب الإسلامية، وكان لي عمل دؤوب ومتصل في دار التقريب في القاهرة

وصادقت الشيخ محمد تقي القمي كما صادقت الشيخ محمد جواد مغنية ولي أصدقاء من العلماء والأكابر من علماء الشيعة، و أنا أريد فعلا أن أُذهب الفجوة أو الشقاق المرّ الذي شاع بين المسلمين خصوصا في أيام اضمحلالهم الفعلي"(الورداني صالح، 1993: 156).

فيما يخص مسؤولية التقريب يوضّح 'محمد الغزالي': " إنّ حالنا اليوم يجعل مسؤولية التقريب بين المذاهب تقع على عاتق العلماء قبل السياسيين" (الغزالي محمد، 1959، صفحة 413)، فالمسؤولية الأولى يتحمّلها العلماء، بيد أنّ 'محمد الغزالي' لم يغفل عن دور السياسيين، إذ أمر بإصلاح ما أفسده أسلافهم (الغزالي محمد، 1959: 413)، لأنّ الخلاف في أوّله كان سياسيًا كما ذكرنا سابقا، وعليهم - أي السّاسة- أن يسخّروا جهودهم في الوحدة كما سخُرت قديما في التفرقة...لكن الدور البارز للعلماء، لأنّ العلم تأثر بالحكم دهرا، وتلوّنت الدراسات الدينية بمآرب الحاكمين، ثم ذهب المتنفعون من ذوى السلطة، وبقى المخدوعون من أهل العلم يعني العامة وأشباههم (الغزالي محمد، 1959: 414).

إنّ الحاجة لملحّة اليوم لأن يتشرّف العلماء على اختلاف مذاهبهم لتحقيق الوحدة الإسلامية، لا سيما علماء الأزهر، نظرا لمكانة الأزهر بين المسلمين، فالشيعي والسني والإباضي...كلّهم على مِلّة واحدة، هذه

الحقيقة لطالما نادى بها علماء الأزهر، فلا ينبغي أن نجعل من اختلاف أرباب المذاهب سببا للتفرقة والصّراع.

علماء الأزهر والتسامح...عطاء متواصل: عند استقرائنا للتاريخ الأوربي نجد أنّ الطوائف المسيحية في القرون الوسطى كانت على شقاق وخلاف كبيرين، هذا الأمر كان سببا مباشرا لجعل فلاسفة التنوير يثورون على الكنيسة التي كانت تهيمن على العقول آنذاك (صالح هاشم، 2005: 18)، فالحال يكاد ينطبق على المجتمعات الإسلامية اليوم، حيث فرض الصراع المذهبي منطقه ولغته لعوامل وأسباب أتينا على ذكرها في ثنايا هذا البحث.

والتسامح لم ينبثق كمفهوم عند الغرب إلاّ بعد تفكيك السياقات اللاهوتية التقليدية التي تحكّمت بالعقل البشري طيلة قرون وقرون (أركون محمد، 2000: 240)، ففكرة التسامح لم تنتشر في أوربا إلاّ عقب الأحداث التي وقعت في القرن السادس عشر ميلادي والنصف الأول من القرن السابع عشر ميلادي (الخليل سمير، 2016: 14).

لقد تعامل مفكرو أوربا مع مفهوم التسامح بطريقة جادّة، حيث كتب كل من فولتير وجون لوك رسالتيهما في التسامح، فهذا فولتير (Voltaire) (1964، 1778) يرى بأنّ التسامح: "لم يتسبّب قط في إثارة

الفتن والحروب الأهلية، في حين أنّ عدم التسامح قد عمّم المذابح على وجه الأرض" (فولتير، 2009: 39). هذا التعريف فيه اشارة الى اللاتسامح الذي عاشته أوربا خلال عصور انحطاطها أي قبل عصر النهضة. أمّا جون لوك (John Locke) (1632، 1704)، فيقول عن التسامح:" يجب أن تتخذ الكنائس من التسامح أساسا لحريتها، وأن تعلم أنّ حرية الضمير حق طبيعي لكل انسان يخصها كما يخص المنشقين عنها، وأن لا اكراه في الدين سواء بالقانون أو بالقوة" (لوك جون، 1997: 58).

فيما يخص معاجم اللغة العربية فقد جاءت كلمة التسامح في مادة سمح، وهي السماحة والسماح: الجود، والمسامحة أي المساهلة. وقولهم الحنيفة السّمحة: ليس فيها ضيق ولا شدّة (ابن منظور، د س: 2088)، تسامح تسامحا، فهو متسامح والمفعول متسَامَح فيه، وتسامح الشخص في الأمر: تساهل فيه، تهاون فيه. والتسامح جزء من العدالة كما جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة (مختار أحمد عمر، 2008: 1104).

أما اصطلاحا فقد اجتهد بعض مفكري الإسلام المعاصرين لضبط هذا المفهوم، فقد عرّفه إبراهيم مدكور(1902، 1996م) على أنّه: " سعة صدر تسمح للآخرين أن يعبّروا عن آرائهم ولو لم تكن موضوع تسليم أو قبول، ولا يحاول صاحبه فرض آرائه الخاصة عن الآخرين " (مدكور

ابراهيم، 1983: 44)، هذا التعريف يشير إلى معنى الحرية، الذي يحمله مفهوم التسامح، ذلك من خلال التعبير عن الرأي والرأي المخالف دون تعصّب، هذا مذهب محمد عابد الجابري (1935، 2010م) في رؤيته للتسامح، حيث دعا الجميع " بأن لا يتخلّى المرء عن قناعته، ولا أن يكفّ عن إظهارها والدفاع عنها والدعوة لها، بل يعني الامتناع عن استعمال أيّة وسيلة من وسائل العنف والتجريح وبكلمة واحدة: احترام الآراء وليس فرضها" (الجابري محمد عابد، 1993: 28)، هنا نلتمس دعوة من 'محمد عابد الجابري' إلى الفرد – أو المواطن بالمفهوم المعاصر- بأن يتمسّك بأفكاره وقناعاته دون تعصّب، وعدم اللجوء إلى الأساليب التي تفرز العنف والكراهية، فالتحلي بقيمة التسامح ضرورية لنبذ ثقافة العنف والتعصّب.

مجمل القول من خلال ما تقدّم من التعريفات السابقة؛ أنّ التسامح يمثّل قيمة أو مجموعة قيم أخلاقية تسمح للفرد - المواطن- أن يرتقي من خلالها إلى المعنى الحقيقي لإنسانيته السمحة، التي نادت بها كل الشرائع السماوية.

أردنا من خلال هذا العرض المقتضب أن نشير إلى أنّ غياب ثقافة التسامح وسط المجتمعات ككل لا تفرز إلاّ العنف والتطرّف، هذه المفاهيم وغيرها من المفاهيم السلبية قد وجدت لها منفذا داخل

المجتمعات الإسلامية والعربية المعاصرة، فدأبت مؤسّسة الأزهر من خلال علمائها، أن يبيّنوا انعكاسات هذه المفاهيم على ذهنية الإنسان عامة وذهنية المسلم خاصة، فعقد لأجل ذلك مؤتمرات وندوات، لعلّ أبرز هذه المؤتمرات ذلك المؤتمر الذي حمل عنوان: الأزهر في مواجهة التطرف والإرهاب، يومي 3 – 4 ديسمبر 2014م، والذي تمّ برئاسة الإمام الأكبر أحمد الطيب (ولد عام 1964م)، هذا العمل يمثّل جسر تواصل لتلك الجهود التي بذلتها هذه المؤسسة من خلال علمائها خلال العصر الحديث، والتي ستساعد من دون شك على إرساء قيم التسامح والتعايش المشترك في المجتمعات الإسلامية.

لا غرو إذا قلنا أنّ الأزهر قد حرص على وحدة المسلمين، ذلك منذ أن قامت مؤسسته وانتشرت دعوتها في الأفاق على مدى أكثر من ألف عام (الطيب أحمد، 2014: 3)، والشيء الذي يعزّز ذلك الدور جهود علمائه التي أبانت عن الرقي في الفكر وتقبّل الحوار مع الآخر، هذا الآخر الذي رسم صورة له داخل الساحة الإسلامية نفسها، فأصبح الشيعي آخرًا بالنسبة للسني والإباضي آخرًا بالنسبة للشيعي وهكذا الحال بين مختلف المذاهب والطوائف الإسلامية.

هذا الصراع نتج عن عدّة عوامل ومؤثّرات تشكّلت من جرّاء التعصّب المذهبي، يضاف إلى ذلك تشويه الخطاب الإسلامي، أو

الإسلاموي، هذا الخطاب الذي أفرزه بعض الممثّلين للإسلام السياسي، حيث شكّل عائقا أمام مبادئ التسامح والحداثة، وأصبحت الثقافة السياسية التي ظلت طاغية هي ثقافة الاقصاء والعزل والاستئصال (شعبان عبد الحسين، 2011: 93).

كثيرا ما يشاعُ عن مصطلح الإسلام السياسي على أنّه من الافرازات التي أُنتجت بسبب توظيف الدين، وهو الأمر الذي سمح بطرح مفاهيم أخرى للإسلام على غرار الإسلام السنّي والإسلام الشيعي (هويدي يحي، 1965: 141)، هذه التقسيمات للإسلام هي التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية اليوم، فأصبح العقل الإسلامي في صراع دائم مع الأوضاع التي تعيشها المجتمعات الإسلامية المعاصرة، ممّا جعلته يفتقد لعنصر التحرّر.

في خطاب ألقاه الإمام 'أحمد الطيب' خلال المؤتمر الآنف الذكر، نبّه من خطورة بعض المفاهيم التي اعتبرها أوكارا تُدبّر فيها سلوكات العنف والتطرّف، فنجده يقول: "وثالثة الأثافي أنّ هذه الجرائم البربرية النكراء ما لبثت أن تدثّرت بدثار هذا الدّين الحنيف، وسمّيت الأوكار التي يدبّر فيها أمر هذه الجرائم باسم الدولة الإسلامية أو دولة الخلافة الإسلامية، أو الدفاع عن المذهب" (الطيب أحمد، 2014: 3).

إنّ المتتبّع لهذا الخطاب المعتدل يدرك نقطة جوهرية أشار إليها 'أحمد الطيب' ، حيث طرح إشكالية مهمّة لطالما كانت سببا في زرع الفتن بين المسلمين على مرّ التاريخ الإسلامي، ألا وهي إشكالية فهم النص الديني كتابًا وسنّةً، وأوضح الإمام رأيه في هذه الجزئية من خلال تهمة التكفير (الطيب أحمد، 2014: 3)، التي ألصقها قُصّار الفهم للنصوص الدينية في حق المسلمين الأبرياء.

إنّ الفهم الخاطئ للنصوص الدينية ساعد على توظيف بعض المصطلحات التي تدعوا إلى العنف والتعصّب لمّا وظّفت خارج سياقها التاريخي، فمصطلحات من قبيل الجهاد والقتال التي أشار إليها أحمد الطيب في كلمته (الطيب أحمد، 2014: 3). هذه المفاهيم يتوجب الوقوف على بُعدها التاريخي والحضاري الذي دعا إليه القرآن الكريم، حيث أنّ السياق التاريخي الذي نشأت فيه هذه المفاهيم إنّما كان نتيجة للدفاع عن النفس وردأ للعدوان، هذا ما عبّرت عنه الكثير من الآيات، يقول تعالى: {وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١}(البقرة، 191) ، ويقول أيضا: {كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ

٢١٦} (البقرة، 216)، وفي موضع آخر أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه بأن يجاهد الكافرين مادام الصراع قائما بينه وبينهم، في قوله: {فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢} (الفرقان 52).

لطالما أتُّهِم الإسلام بأنّه دين يحرّض على القتال والجهاد، في حين أنّ ارتباط هذين المفهومين في الثقافة الإسلامية تعلّق بالدفاع عن مقوّمات الوطن واعلاء كلمة التوحيد، دون التعصّب لقبيلة أو عرق أو مذهب، لأنّ فيه مخالفة لما جاءت به الشريعة الإسلامية، حيث لا فرق بين عربي وأعجمي ولا بين أبيض وأسود إلاّ بالتقوى، ولنا في رسول الله إسوة حسنة حينما غادر بلده مكّة وهي أحب مكان إلى قلبه، ولم يتعصّب أبدا لقبيلته أو عِرقه، هنا تتجلّى أسمى معاني التسامح في تعامل النبي محمد مع دعوته، هذا ما يجعل من المسلم المعاصر اليوم أن يتجنب أشكال التعصّب والتطرّف، وأن يسعى إلى تحقيق التسامح والعيش المشترك، لا سيما وأنّ صورة المسلم اليوم أصبحت مشوّهة نتيجة هذه الخلافات المذهبية والصراعات الطائفية.

الخاتمة:

ما نتوصل إليه بعد أن عرضنا اسهامات وجهود بعض أعلام الأزهر الشريف المحدثين منهم والمعاصرين في التقريب بين المذاهب والوحدة الاسلامية، وارساء قيم التسامح والعيش المشترك:

تعتبر التجربة الغربية في الدعوة إلى التسامح لمّا كانت الطوائف المسيحية في عصر مضى تعيش اللاتسامح، صورة مطابقة لما تعيشه المجتمعات الإسلامية المعاصرة، ذلك لما تعرفه هذه المجتمعات من خلافات وصراعات مذهبية لا تمتّ للإسلام بأيّ صلة.

وهو أنّ منتصف القرن العشرين الميلادي شهد ميلاد مشروع التقريب بين المذاهب الإسلامية، حيث ضمّ هذا المشروع أهم مذهبين في الإسلام الشيعة والسنّة، حيث حاول رواد التقريب أن يضيّقوا الخلافات والصراعات التي نشبت بين المذاهب الإسلامية على مر التاريخ الاسلامي.

المشروع التقريبي بين المذاهب الاسلامية لم يدع قط كما زعم بعض المعارضين له إلى تذويب المذاهب في بعضها البعض، إنّما كان هدفه تضييق دائرة الخلاف بين هذه المذاهب في مسائل مختلفة كمسألة الإمامة، التي تعتبر أهم مسألة اختلف حولها المسلمون.

الدعوة إلى الوحدة الإسلامية والتقريب بين المذاهب الإسلامية، من بين الأمور التي دعا إليها الإسلام، فقد حمل هذه الرسالة علماء الأزهر وكانت جلّ جهودهم منصبّة في هذا الاتجاه، هذا ما حاولنا

تأكيده من خلال الوقوف على جهود بعض علمائه من العصر الحديث والمعاصر.

لا يزال الأزهر الشريف منبع سلام يبثّ أفكاره الداعية إلى الوحدة والتعايش بين الثقافات، وخاصة التعايش بين المذاهب الإسلامية، هذا الذي أكّدناه من خلال جهود الامام أحمد الطيب.

إنّ المجتمعات الإسلامية المعاصرة بحاجة ماسّة إلى ممارسة بعض الثقافات، فعليها أن تعترف بثقافة الاختلاف، وأن تتشبّع بثقافة الاعتراف، وأن تعيش ثقافة الحوار، هذه الثقافات تساعد على تجسيد ثقافة التسامح التي غُيّبت بشكل أو بآخر من المجتمعات الإسلامية.

في الأخير يحق لنا أن نتساءل عن حاضر ومستقبل هذه الثقافات (الاختلاف، الاعتراف والحوار) في ذهن المسلم المعاصر؟ وهل أصبح العقل الإسلامي عاجزا عن تقبّل هذه الثقافات؟ ما هو دور المؤسّسات الدينية الإسلامية الأخرى؛ على غرار القرويين والزيتونة في تونس والحوزة العلمية في ايران والعراق، في التقريب بين المذاهب الإسلامية؟ إلى أي مدى يمكنها تعزيز ثقافة التسامح بين المجتمعات الإسلامية؟ وهل أَصبح مصير العالم الإسلامي مرهونا بالقرارات السياسية التي تمليها ايران والسعودية على الشعوب الإسلامية؟

هذه اشكالات تزيد من مشقّة الفكر الإسلامي المعاصر، بيد أنّه يجب التنقيب عن مثل هذه الاشكالات، حتى تتجاوز المجتمعات الإسلامية المعاصرة العقبات التي تعترضها في التقدّم الحضاري.

التعليقات:

1. هو تعبير عن المذهب الشيعي الاثني عشري الذي يعتقد أربابه بأن خلافة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- تكون للإمام علي بين أبي طالب – رضي الله عنه-، والاثني عشر امام من بعده، ويعود هذا الاشتقاق الى الامام جعفر الصادق.

2. قضية التحكيم، وقعت بين جيشين من المسلمين، جيش الإمام علي وجيش معاوية بن أبي سفيان، ودعا الفريقان إلى الاحتكام بالقرآن الكريم ليهتدوا إلى حلّ سلمي يغنيهم عن الحروب والاقتتال، ولكن التحكيم فشل نظراً لصعوبة حل الخلاف وإصرار الطرفين على مواقفهما السابقة. للاطلاع أكثر على قضية التحكيم يراجع كتاب: العواصم من القواصم لابن العربي ص: 172. وكتاب: عصر الخلافة الراشدة لأكرم ضياء العمري ص:472-477.

قائمة المراجع:

أركون، محمد. (2000). قضايا في نقد العقل الديني. بيروت: دار الطليعة.

الجابري، محمد عابد. (1993). قضايا في الفكر المعاصر. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

الخسروشاهي، السيد. (2007). قصة التقريب: أمة واحدة، ثقافة واحدة. طهران: مركز التحقيقات والدراسات العلمية.

الصعيدي، عبد المتعال. (د س). الوطنية والقومية في الإسلام. رسالة الإسلام، العدد: 9، الصفحات 59 - 63.

الطيب، أحمد. (ديسمبر, 2014). الأزهر في مواجهة العنف والتطرف. لتعارفوا، الصفحات 1- 4.

الغزالي، محمد. (1959). على أوائل الطريق. رسالة الإسلام، العدد: 44، الصفحات 412- 417.

الغزالي، محمد. (د س). صدام بين السنة والشيعة في باكستان. رسالة الإسلام، العدد: 53، 54، الصفحات 130- 134.

المراغي، مصطفى .(1949) .الاجتهاد في الشريعة .رسالة الاسلام، العدد: 4، الصفحات 347- 358.

الميلاد، زكي. (ديسمبر, 2015). المسلمون الشيعة: رسالة التقريب بين المذاهب الإسلامية. الكلمة، العدد: 87، الصفحات 5 - 19.

الورداني، صالح. (1993). الشيعة في مصر من الإمام علي إلى الإمام الخميني. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

برانر، راينر. (2015). التقريب بين المذاهب الإسلامية في القرن العشرين: الأزهر والتشيع محاولات وتحفظات. بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي.

سلهب، حسن. (2008). الشيخ محمود شلتوت. بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي.

شعبان، عبد الحسين. (2011). فقه التسامح في الفكر العربي الإسلامي. أربيل: دار أتراس.

صالح، هاشم. (2005). مدخل إلى الفكر الأوربي. بيروت: دار الطليعة.

عمارة، محمد. (2006). فتنة التكفير بين الشيعة والوهابية والصوفية. قضايا إسلامية، العدد: 142، الصفحات 5- 113.

مختار، أحمد عمر .(2008) .معجم اللغة العربية .القاهرة :عالم الكتب.

ابن منظور (.د س .) لسان العرب .القاهرة :دار المعارف.

الأفغاني، جمال الدين. عبده، محمد .(2002) .العروة الوثقى .القاهرة :مكتبة الشروق الدولية.

الخليل، سمير . (2016). التسامح في اللغة العربية. تأليف سمير الخليل وآخرون، التسامح بين شرق وغرب (الصفحات 5- 25). بيرزت: دار الساقي.

العلايلي، محمد . (1997). مسألة التقريببين السنة والشيعة: أسس ومنطلقات. بيروت: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية.

العوا، محمد سليم. (2006). في النظام السياسي للدولة الإسلامية. القاهرة: دار الشروق.

الغزالي، محمد . (1981). دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين. القاهرة: دار الشروق.

القمي، تقي الدين . (د س). رجال صدقوا. رسالة الاسلام، العدد: 55، 56، الصفحات 5 -19.

عمارة، محمد. (2007). الاصلاح الديني في القرن العشرين: المراغي نموذجا. قضايا إسلامية، العدد: 148، الصفحات 3- 79.

فولتير. (2009). رسالة في التسامح. دمشق: دار بترا.

لوك، جون .(1997) .رسالة في التسامح .القاهرة :المجلس الأعلى للثقافة.

مدكور، ابراهيم .(1983) .المعجم الفلسفي .القاهرة :الهيئة العامة لشؤون المطابع المصرية.

هويدي، يحي . (1965). تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الافريقية. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.